

# رواية «الطريق» بين الرمز والواقع

## بقلم عبد العزيز عبد الفتاح محمود

كلما نزل من الفندق كالعقد المكدوب ، او رنين السليفون الذي يوحى  
بالرجاء مجرد أيقاع .. او اعلامه المزعجة عن ابيه التي ما تلبثت ان  
تصدمه اثقلا بالواقع .. او وجه « الهام » الملائكي وجسد « كريمة »  
الذي يلمسه بالرقبة كل ليلة . اين حقيقته وسط هذه الدوامه ؟ اين  
صابر الانسان الطدوح الى المستقبل ؟ اين صابر الادمي . لذي يحس  
بالحياء الجديدة لكنها نفر من بين يديه كحساء لعوب لا تمكنه من  
نفسها ؟ .. هل هو « سيزيف » القرن العشرين ؟ ام مجرد سرد  
مفهور .. رقم يعيش وسط ملايين الارقام الملقه في لوحة خالده ؟ . ربما  
لا يستطيع ان يجيب على هذه التساؤلات فهو موزع النفس بين الهام  
وكريمة .. هو مزدوج الشخصية الى ابعد حد . الهام بالنسبة اليه  
تمثل المستقبل ، حياة الاستقرار والحرية والكرامة والسلام .. وكريمة  
بالنسبة اليه تمثل الماضي البشع وحياة القلق والعدم والجنس  
والجريمة . في محل « فتركون » يتناول مع الهام شطائر الفطير واكواب  
العصر ويتكلم في الحب والاستقرار والمستقبل ، ويعيش في ضوء  
النهار . وفي حجرته بفندق القاهرة تتسلل اليه كريمة خلسة بعد ان  
ينام زوجها العجوز « عم خليل » صاحب الفندق فتشعل فيه الرغبة  
وتبعث بين جنبيه العنف ، وتلا خياشيمه باللذة والعمه والجريمة .  
وفي سبيل الوصول الى الهام او كريمة يكاد ينسى هدفه الاول وغايته  
الكبرى .. يكاد ينسى اياه الضائع وعالاه المفقود . نعم فنحن تلهينا  
غاياتنا الصغيرة عن اهدافنا الكبيرة .. وتحولنا مسالك الطريق عن  
الوصول الى نهاية الطاف . ان المال المحدود الذي تبقى من ثمن شقته  
في الاسكندرية يكاد ينقد ولم يعثر صابر على ابيه .. لم يستطع ان  
يهديه اليه العراف ولا الاعلان في جريدة « ابي الهول » .. فلينفذ خطة  
« كريمة » . ان عم خليل العجوز ربما يعيش عشرين عاما ولديه المال  
والفندق والرة البضة ولا شيء غير ذلك . لماذا لا يحتويه القبر الان  
بعد هذا العمر الطويل ؟ ماذا يريد بعد ذلك من الدنيا ؟ ليترك لغيره  
مكانه فهو اقدر على الانفاق واشباع رغبة الزوجة . ان لديه الامسل  
والهدف بينما عم خليل لا امل له ولا هدف . فليضربه باله حصاده  
ويتزوج كريمة . وبالرغم من حب الهام له فلا امل للزواج منها . هي  
متفة وموظفة في جريدة « ابي الهول » وهو جاهل وعاطل . لم يبق  
غير كريمة بنت الليل والانفوس والبحر .. وعم خليل ليس سوى عقبة  
صغيرة يسهل التخلص منها .. ويفتح ذات ليلة باب مخدع عم خليل .  
الليل والسكون لا يبددهما سوى صوت الشحاذ العجوز في الشوارع .  
وتحفظ عينا عم خليل على ضوء الللمبة الجاز بينما تهوي الالة الحادة  
في يد صابر على جبهته بضربة قاضية .. وينفثت من الشباك ويهرول  
الى النيل ليخفي اداة الجريمة بينما كل شيء يشير اليه في احمرار  
بلون الدم .. السماء وصفحة النهر والشوارع الخالية وجسد الشحاذ  
العجوز ووجه ابيه الضائع المجهول . وفي الصباح نكتشف الجريمة ،  
ويدخل « علي سريوقس » خادم الفندق السجن تحت التحقيق .. هو  
الذي لم يرتكب جريمة ولم يفعل شيئا .. لكن هل تضيع معالم الجريمة  
بكل هذه اسهلولة ؟ . ان « محمد الساي » يشر في صابر الفسيرة  
والعنف .. لقد لاحظ العجوز نظرات صابر الجائفة نحو كريمة ، كذلك  
لاحظ من قبل تسلل زوجها السابق الى الفندق في حياة زوجها الاخر  
القتيل . لقد خانت كريمة زوجها كثيرا .. والقي بالحقيقة في وجهه

في هذه الرواية الجديدة الرائعة لكاتبنا الكبير نجيب محفوظ  
جانبا يصرهما الباحث نصب عينيه منذ الوهلة الاولى التي ينتهي فيها  
من القراءة .. الجانب الاول : المحتوى الفلسفي لرؤيا الكاتب  
والدلالات الخطيرة التي ينتهي اليها . والجانب الثاني : مزج الرمز  
بالواقع في قدرة فائقة دون ان يفقد الكاتب سيطرته لحظة على التكنيك .  
ويجدر بنا ان نقرر منذ البدء ان اسلوب الرواية فيه بساطة  
الشعر وشفائيته وعمقه .. لكنه مع ذلك اسلوب روائي اولا استطاع  
نجيب محفوظ ان يجعله موجيا وماسا ومزجرا وغائبا وعنيفا .  
ورواية الطريق .. هي الطريق بين الحاضر والمستقبل .. هي  
الخروج من الماضي العفن الملوث الى العالم الفسيح حيث التطلع  
« بمعزة الى الكرامة والحرية والسلام » .

ان اكتشاف الطريق هو اكتشاف حياتنا ذاتها من خلال الصراع  
الهائل في المجتمع الواحد .. ومن خلال الدوامه التي يدور فيها  
عالمنا اليوم .. ان انسان العصر الحديث قد ورت حياة مثقلة بالاحزان  
والهموم .. بالحب والعطف .. بالمسؤولية واللامبالاة في آن واحد ،  
وحضارة القرن العشرين حضارة معقدة لا يسهل على المرء ان يحيا في  
كنها دون ان يفقد الاتجاه . وعليه ان يضع قدمه على نقطة ارتكاز  
ليحدد مكانه ويكتشف ذاته وذوات الاخرين .. فالانسان المعاصر مشدود  
الى ماضيه ، وهو في تطلعه الى القمة مرتبط ابدًا بالسفح .. وهو  
في نضاله الطويل يشده المصير المجهول .. لا بد من الحرية لكي تتوفر  
لنا الكرامة .. ولا بد من الكرامة لكي يتحقق لنا السلام .. لكن من  
اين يأتي السلام ؟! .. ان عالمنا ملغ بالجنس والعدم والجريمة وهي  
قيود تعوق مسيرنا نحو الحرية والكرامة والسلام .

ان الوصول الى سير سيد الرحيمي هو الوصول الى عالمنا الضائع  
.. عالمنا الذي نفتقده ونناضل من اجله .

لقد اكتشفت « بسيمة عمران » ذاتها فجأة في الطريق من السجن  
الى القبر والقت بكل اسرارها الى « صابر » ابنها الوحيد وعليه ان  
يمضي في طريق آخر غير طريق امه . لقد هدته الى الطريق الصعب  
حينما اخبرته ان اياه ما زال حيا .. لم يمضت كما قالت له من قبل .  
انها لا تعرف عنه شيئا منذ ثلاثين عاما .. منذ هجرته وهربت السى  
الاسكندرية . عليه ان يمضي في كبرياء والا يهتم بكلام الناس ، وان يلوي  
قبضته القوية التي يلوح بها « فتحرس الالسنه المتوتبة للنيل منه  
ومن امه » .. انها اشرف من امهاتهم جميعا « فهم مهرة في خداع  
الناس بمظاهرهم ، الوجيه فلان ، المدير فلان ، الخواجا فلان ، سيارات  
وملابس وسيجار ، كامات حلوة ، روائح زكية ، لكنني اعرفهم على  
حقيقتهم .. اعرفهم في حجرات النوم وهم مجردون من كل شيء الا  
العيوب والفضائح » .

وكانت نقطة الارتكاز بالنسبة لصابر هي الانفصال عن امه .. هذا  
الانفصال الذي فرضه الموت بوجهه الكالج . ليترك حياة الليل والدعة  
والفراغ والمال والصعلكة الى حياة المشقة والبحث . لكن الطريق  
الموحشة المعطرة تسلمه الى طرق موحشة مليئة بالاسرار والانفاذ والاحلام  
والياس . فحياته في « النبي دانيال » بالاسكندرية والبحر وبنسات  
الليل والفرانز المشبوبة لم تنفصل عنه وهو تائه في القاهرة يبحث عن  
ابيه في اعلان الصحيفة اليومية او وجه الشحاذ العجوز الذي يقابله

صابر .. اشعل فيه الغيرة والعنف .. حتى ان يصبح زوجا لكريمة، بعد ان ارتكب الجريمة أصبح املا ضائعا تماما مثل ابيه الضائع من ثلاثين عاما . « لكن الجنون كان يعصف به عصفا .. اجل كان الجنون يعصف به عصفا » .. « لن اسمح لقوة في الارض يا تجعل مني ابلسه . ستجديني فريبا فوق رأسك ضربة قاضية .. اعلمي ما تشائين .. خوني او تزوجي ، فان جبل المشقة في يدي ، لا تتوهمي ان حياتي اعلى من كبريائي » .

لقد نسي صابر في هذه اللحظة قضيته الاولى واصبحت قضيته الثانية تستولي على كل اهتمامه .. لا بد ان يذهب الى الزيتون فريبا كانت تضاجع الان رجلا اخر .. لا بد ان يواجهها بالحقيقة كما التسي بها في وجهه محمد الساوي العجوز . وخرج قاصدا الزيتون مقتنعا انه ضلل المخبر الرابط امام الفندق .. ويجد نفسه امامها وجهها لوجه .. وتأتي النهاية :

- « صدقني .. انا احبك .. لم ادبر شيئا الا من اجلك .. صدقني حطمت حياتي بكذبة لتفوزي انت وعشيقك بالثروة والحياة . صدقني قبل فوات الاوان .. انت حبيبي .. ولا احد غيرك ..

خرج الرجل من حياتي من زمان  
- دبرت قسمة جهنمية ، فلي الجريمة ، ولك الرجل والثروة .  
- لا شائنة انتهيينا ، اللمنة ، رأسك كالحجر ، كلمة اخيرة .. الا تريد ان تصدقني ؟

- كلا ..  
- اذن ماذا تريد ؟!  
- ان اقتلك ..  
- ثم تشنق ؟!  
- في الف داهية .

ودوى طرق على الباب كالتبايل ، وطوقت البيت اصوات مهددة ، واقدم ثقيلة ، وصرخت كريمة بيأس : جاء البوليس ، الم اقل لك . انقض عليها كالمجنون وقبض على عنقها بيدتين عصبيتين ثم حفظ بكسـل قواه على حين اهتز الجو من زلزلة دفع الباب » .

وهكذا يسقط صابر في منتصف الطريق .. دون ان يحسم قضيته الاساسية . لقد سقطت من قبل « بسيمة عمران » وخرجت من السجن لتعري الحقيقة كما عرت جسدها ثم تلفظ انفاسها الاخيرة .. وضاع سيد سيد الرحيمي منذ ثلاثين عاما واصبح لا يدل عليه سوى صـوت الزفاف .. وها هو صابر يواجه الموت وحبل المشقة يداعب عينيه ،

وحان موعد الالتفاف حول عنقه . ان اسرة الرحيمي تقع في الموت والضياع وهي تبحث عن الحياة والاستقرار .. الموت والحياة همسا وجها القضية ، وهما المحور الفلسفي لادب نجيب محفوظ الان كما كان محور ادب الروائيين الكبار في كل العصور منذ عصر الميثولوجيا والميتافيزيقيا حتى عصر العلم والتجريد والقبيلة الذرية رغم اختلاف الرؤية والاسلوب والتكنيك . ان نجيب محفوظ يعري القرن العشرين تعرية تامة ، فلم يوفر لانفسنا الطمانينة بعد ، ولم يوفر قرننا العشرون السلام بعد ، ولم يوفر العيش الكريم والسعادة بعد ، ان الجدران ما زالت امامنا : الحروب والكوارث .. الحقد والعنف .. القيم مهزوزة ولا بد من قيم جديدة .. التفرد موجود لكنه لم يخف وجه الشخاذا ولا قبضة البلطجي .. وسيد الرحيمي لا يستقر في مكان ابدا .. هو موزع بين قارات العالم .. وجهه الجميل لا نعرفه الا من خلال صوت على ورق .. « خصاله هي خصالي ولكن بينما يلهو هو فوق الكرة انزوي انا في السجن منتظرا حبل المشقة » . هكذا يؤكد صابر لحاميته وهو ناكيد مبعثه التناقض الواضح لكثير من زوايا حياتنا في عصرنا الراهن ..

- « صاحبك الضريع لا يعرف كل شيء .  
- هو على اي حال مليونير .  
- الهم من ذلك ان قوانين الدولة لا تهدده .  
- لكنك كنت تعلم انك فقير وخاضع لقوانين الدولة » .

ومع كل التناقض الموجود في العالم لا بد من النضال والبحث . فالطريق طويلة وشاقة ولا بد من السير حتى تدمى الاقدام او يواجهنا المصير . ربما نجد فرصة للامل حتى ولو كنا نواجه الموت .. والانسانية ما زالت تسير بالرغم من كل شيء : الحرب .. والجلادون .. وارتفاع الاسعار .. والضعفاء وعشاق الدمار في الليل .. والشحاذاون .. وربما يصدمننا الواقع بمرارته لكنه واقمنا على اية حال ولا بد من العيش فيه رغم القسوة والمرارة .. وهي دلالة خطيرة لعمل ادبي خطير . ونختم هذه الدراسة الصغيرة المتواضعة بكلمة لوبس عوض في الاهرام : « واليوم يقدم لنا نجيب محفوظ في قصته الكبيرة « الطريق » مرحلة جديدة ووجها جديدا في هذا الادب العظيم .. ادب بحث الانسان عن المجهول العظيم ، ان اخذناها مأخذ الواقع عشنا مأساة الانسان في الواقع ، وان اخذناها مأخذ الرمز طاردنا معه اسرار المجهول حتى حافة الاكمة » .

عبد العزيز عبد الفتاح محمود

القاهرة

صدر حديثا

# حكاية من إفريقيا

مجموعة شعرية جديدة يعود بها الشاعر المبدع

محمد الفيتوري

الى قرائه الكثيرين بعد غياب بضعة اعوام  
نكهة جديدة في اسلوب متطور

منشورات دار الادب

الثلث ليرتان لبنانيتان